المشرق

أقدم اثرٍ لبني غسّان

او اخربة المُشتّى

للاب هنري لامنس اليسوعي

١

انّك اذا ما زايلتَ مادبا القرية الواقعة في متصرّفية الكرك التي ذاع صيتها مؤخرًا باكتشاف الفسيفساء المشتهة لانحاء فلسطين ثم سرتَ الى جهة الشرق وصلتَ الى سهل رحب الارجاء متّسع الافناء لا شجر فيه تحدُّه عن بعدٍ سلسلة جبال جزيرة العرب الضاربة الى الزُّرقة

ولا تلبث بعد ان تقطع بعض الروابي والنجوات ان تلقى بازائك آثارًا عظيمةً شبيهة بآثار حصن منيع او قصر بديع ينتصب بجلالٍ في خلوة البراريّ. تلك هي أخربة المُشتّى

فهذه الآثار عبارة عن سور مربع الشكل تبلغ جوانبهُ نحو ١٥٠ مترًا وفي زواياهُ اربعة بروج مستديرة. ولكلٍّ من جوانبه الثلاثة شرقًا وغربًا وشمالًا خمسة بروج ناتئة على هيئة نصف حلقة. اما الجهة الجنوبية فلها ستة بروج يشرف اثنان منها على جهتَيْ باب هذا البناء العجيب وهما كثيرا الاضلاع

وان ولجتَ داخل البناء تجدهُ منقسمًا الى ثلاثة مربّعات مستطيلة اوسعها الاوسط فيه كانت الابنية القديمة وهي عبارة عن قصر طولهُ خمسون مترًا في عرض سبعين مترًا. وكان امام هذا البناء عمارة اخرى سعتُها كسعة القصر وبين البنائين ساحة مربّعة جوانبها خمسة وستّون مترًا. والظاهر انّ هذه البنايات لم يُنجز عملُها فاستولى عليها الخراب قبل تمامها

اما القصر المذكور فيشتمل على حجرة واسعة تحسبها كنيسة قديمة من طرز الكنائس

المعروفة بالملكيات (بازيليك) يليها اربعة منازل . والابنية كلها شيدة بالآجر سوى طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهي مبنية بالحجارة البيضاء . وجدران الحجرة الوسطى كانت مهيأة في اصل وضعها لتنقش عليها نقوش حسنة من الرخام او الفسيفساء . وفي ساحة الدار لا تزال حتى الآن قطع ضخمة من الرخام الاخضر لم تُنحت

هذا وانَّ من دخل لزيارة هذه الآثار لا يستطيع ان يضبط نفسهُ عن الانذهال لدى منظره وجه البناء الخارجي . وهو كلهُ مجمَّل بالنقوش البديعة ترى من جملتها جفنة محكمة الصورة ذات اغصان وسروغ مشتبكة تمتدُّ على طول البناء في خلالها طيور وحيوانات لا حقيقة لوجودها كالأُسود المجنَّحة والعنقاء وكلها على هيئات غريبة تمرح وتستقر حول العنب او تشرب من الكؤوس (انظر الصورة في الصفحة التالية)

اوَّل ما يخطر في البال عند نظر هذه البقايا الجليلة تُرى ما كانت غاية هذا البناء ولمن يصحُّ ان يُنسب . وقد ذهب العلماء في آرائهم مذاهب فزعم البعض انهُ هذا دير وانَّ الفرقة الوسطى بيعة قديمة كان يجتمع فيها الرهبان لاقامة الصلاة . غير ان هذا الرأي يدحضهُ عدَّة حجج لاسيَّما انَّ القبلة ليست هي من الشرق الى الغرب كما اعتاد ذلك قدماء النصارى لكن من الشمال الى الجنوب . فالاحرى إذن ان يقال انَّ هذا بلاط يُحدق به سور يمنعهُ من الغزوات وانَّ البيعة الموهومة هي ديوان القصر وناديهِ الكبير

ثم انَّ في تركيب قصر المشتى ما يُشعر بهندسة الروم يؤخذ ذلك من هيئة الديوان الشبيه بالبيع الملكية (بازيليك) ومن صورة النقوش الناتئة ورؤوس الاعمدة واكللها الى غير دلائل يطول شرحها . ومع ذلك في وسعنا ان نقول انَّ هذا البناء لا يمكن عزاؤهُ الى اليونان لانَّ هذا القصر خارج عن حيِّز المدن الخاضعة لسلطان الروم وهو ينتهي على سمت مدن جرش وعمَّان ومادبا . وزد على ذلك انَّ موقع هذه البناية في بادية بيداء لم يكن الروم ليرضوا ان يبنوا فيها قصرًا بديعًا كهذا

وذلك مما يردُّ ايضًا مزاعم من ارتأوا انَّ البناء من عمل الفرس فضلًا عن انَّ لا اثر في هذا القصر لهندسة الفرس . ولا يكفي ما جاء في خلال النقوش من تصاوير الطيور والحيوانات فانَّ ذلك شائع عند غير الفرس ايضًا

وقد رجَّح البعض أن اصل البناء من عمل الروم بيد ان للعرب في صناعته يدًا وعليه سلكوا بأنَّ هذا القصر بدء الهندسة العربية . ولكن لمَّا جهل هؤلاء تواريخ قدماء

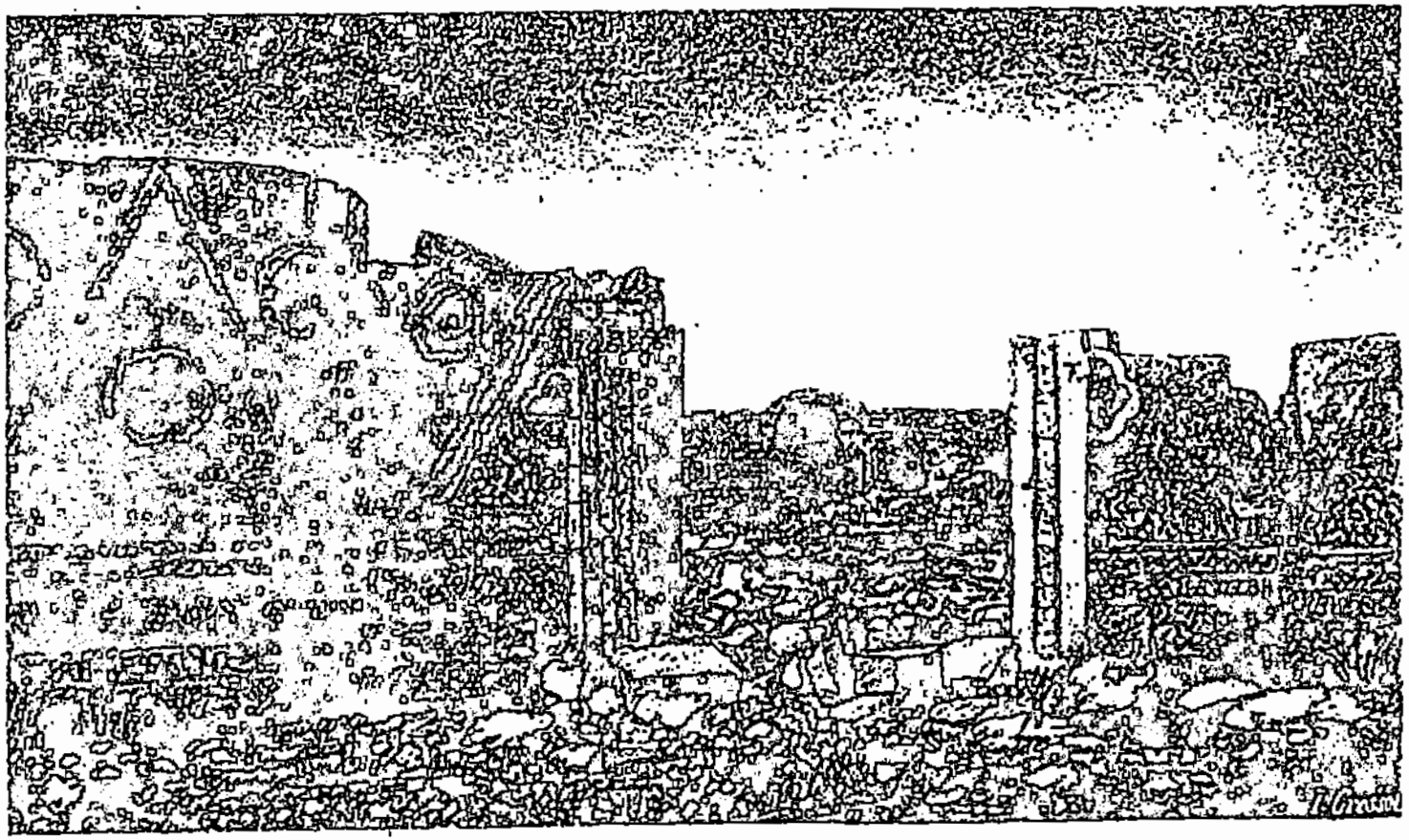

وجه قصر المشتى ومدخله

العرب نسبوا دون تروٍّ بناء هذا القصر الى خلفاء دمشق من بني أميّة وآثروا الخليفة عبد الملك لزعمهم انّهُ اشتهر بالبنايات الجليلة التي منها المسجد الاقصى في بيت المقدس(١. اما الكرمة المنقوشة على جدران وجه البناء فقالوا بغير بيّنة انّها دلالة على كلف الخليفة بمعاقرة الخمرة فنسبوا لعبد الملك ما هو بريء منهُ على انّهُ قول مخالف لرواية قدماء المؤرّخين (٢

فلا نسلّم اذًا بصحّة هذا القول ونظنُّ انّ قصر المشتّى ليس من اعمال عبد الملك وفي تصاوير الحيوانات والكرمة على وجه البناء شاهد كافٍ على فساد رأي هؤلاء الكتبة. ثم انّ الخليفة عبد الملك لم يُعرَف بكثرة بنائهِ فضلًا عن انّهُ لم يزل مشغولًا بالحروب لم يمكنهُ الوقت من البناء. اما احتجاج الخصوم بانّ عبد الملك شيّد في بيت المقدس قبّة الصخرة المعروفة بالاقصى فذلك امر اقتضتهُ الظروف لا يكفي لبيان قصدهم فضلًا عن انّ المعروف من بني اميّة بكثرة ابنيتهِ انّما هو الوليد بن عبد الملك. اما عبد الملك فانّهُ اشتهر بحسن التدبير والسياسة وكان مقتصدًا للاموال(٣ ينفقها في مهمّات الدولة ليس الّا فلم يكُ ليبذرها في بناء قصر في وسط البلقاء بلا فائدة ولا عائدة

هذا وانّهُ لا يمكن نسبة المشتى لغير عبد الملك من الخلفاء من الامويين لانّ اكثرهم لم يكن البناء من همّهم اما الذين سعوا في تشييد البنايات فانّهم قلّما افتكروا في البلقاء.

٢

ولكن ان انكرنا نسبة المُشتى لبني امية أفترانا ننكر كونهُ للعرب. لا لعمري وانّما يغلب على ظنّنا انّ هذا البناء اقدم عهدًا من الخلفاء وانّهُ من مآثر بني جفنة ملوك الغسّانيين كما ارتأى الدكتور برنّوف في ملحق اعمال الجمعية الفلسطينية (٤ . ولترجيح هذا الرأي دلائل منها هيئة هندسة القصر وموقعهُ في طرف البرّيّة وتمهيدًا لبيان ذلك قد رأينا ان نذكر هنا لمعةً من احوال بني جفنة وعزّهم

---

١) راجع المجلّة Echos de N. D. de France, t, IV. p. 216

٢) راجع مقالتا الفرنسيّة في الاخطل Chantre des Omiades, *Paris, Alb. Schultz*, p. 32, 68, etc.

٣) راجع مروج الذهب للمسعوديّ (٥ : ١١٠) وكتاب الاغاني (١٥ : ١٠٨)

٤) R. Brünnow: *Nachrichten u. Mittheilungen*, 1895, p. 87.

من المعلوم ان اصل الغسّانيين من جنوبي جزيرة العرب وقد شهد قدماء مؤرخي اليونان انّ اهل تلك البلاد كانوا على قدم من التمدّن. وذلك امرٌ اثبتته في زماننا اكتشافات خطيرة صارت في بلاد اليمن. ولمّا تبدّدت قبائل عرب اليمن بعد خراب سدّ مأرب وسَيْل العَرِم التي بنو غسّان منهم الى جهات الشام في اواخر القرن الرابع للمسيح وهم وارثون عن اجدادهم قسماً من صنائعهم وحرفهم فحلّوا في صحاري البلقاء بجوار مادبا (١ وكان سبقهم الى سكنى تلك الانحاء بنو سليح فظهروا عليهم وخافوهم في امرتهم (٢

واستعمل القياصرة ملوك القسطنطينية بني جفنة واقبّوا امراءهم برؤساء قبائل (phylarque) وولّوهم الامر ليس فقط على غسّان بل على عدّة قبائل تسكن البراري من ضفة الفرات الى انحاء الحجاز وجعلوا لهم وظائف معلومة غايتهم بذلك ان يردّوا غزوات ملوك الحيرة عمّال الفرس. وكانت كلّ هذه الاحياء من العرب بخضوعها لملوك الروم تتأثّر فنونهم وعلومهم وتقتدي باصنائعهم. وفي منشور الملك يوستينوس الاوّل سنة ٥٣٦ ما يُشعر بانّ رؤساء القبائل المذكورين آنفاً كانوا يحكمون الحكم الشرعيّ على اقليم العربية اعني الحوران والبلقاء. بيد انّ المدن كان لها تنظيمات مخصوصة يسير سكّانها بموجبها. وقد جاء في شعر حسّان بن ثابت اشارة الى انّ ملك بني جفنة كان ممتدًّا من الحوران الى بحر القُلزم

وقد تلطّف ملوك القسطنطينية في اكرام امراء غسّان حتى انعموا عليهم بلقب البطريق وهو من اسماء الشرف التي لم يمنحوها سوى لبعض الخاصّة. وكان هذا اللقب يخوّل من اتّسم به حقوقاً ونعماً سابغة حتى كان الملوك انفسهم يحبوا ان يكنّوا به كما ترى في مثل كلوفيس ملك الفرنج. وكان القيصر نفسهُ يعظم البطارقة ويدعوهم باسم الاب. وقد روى المؤرّخ پروكوپ في تاريخ حرب الفرس (الجزء الاوّل العدد ١٧) ان الحارث الجفني نال ايضاً برتبة الملك مع السلطان المطلق على كل القبائل المنضوية تحت حكم الرومان

---

١) قال ابن خلدون (٢ : ٢٢٨) انّ بني سليم « نزلوا ببلاد موآب من ارض البلقاء ». وقد زاد المسعودي بياناً في مروج الذهب (٣ : ٢٢١) فقال ان حاضرتهم كانت « مادب من ارض البلقاء »

٢) راجع تاريخ عرب الجاهليّة (C. de Perceval II, 202)

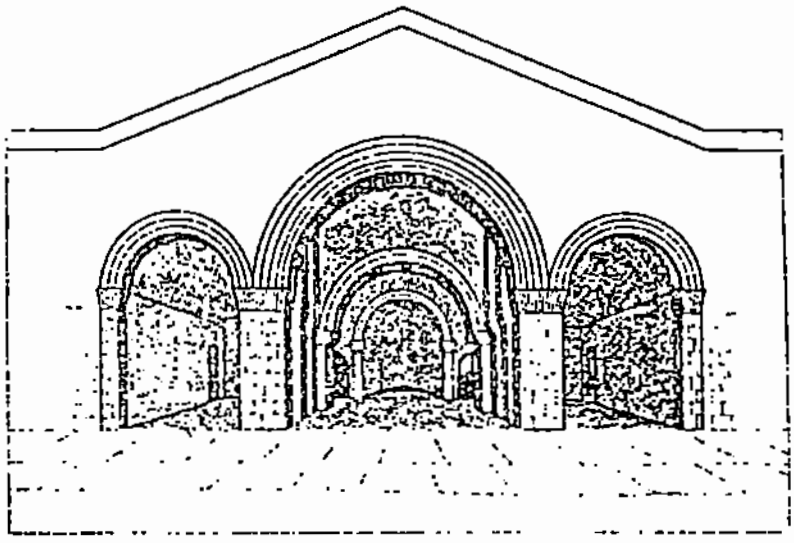

صورة داخل قصر المشتى وهندسته الاصلية على رأي الدكتور برنّوف

وبلغت قدرة بني جفنة عند القياصرة الى ان قاوموا في بعض الامور اولياءهم واجاروهم الى مرامهم كما ظهر ذلك في مسألة المونوفيزيتين القائلين بالطبيعة الواحدة لما ناوروا المجمع الخلقيدوني وردّوا حكمه. فكان ملك القسطنطينية يتعقّب آثارهم ويعاملهم بالعُنف فاعترض الحارث الجفنيّ دون هذه الاوامر ولم يزل يضرب اخماساً لاسداس حتى اضطرّ القيصر ان يسمح لهُ بسيامة اسقفين من بدعة المونوفيزيتين للبلاد التي يسكنها السريان والعرب معاً وكان يعقوب البرادعيّ احد هذين الاسقفين. فاولا الحرث لحبط مسعى ذوي الطبيعة الواحدة

هذا وان عَظَمة ملوك غسّان كانت مساوية لقدرتهم حتى ضرب العربُ فيها الامثال. وكانت الشعراء قبل الاسلام تتقاطر الى منازلهم من كلّ أوب فيعودون وهم مُوقرون بألطافهم. وقد ورد في كتاب الاغاني ذكر وليمة فاخرة أولمها جبلة بن الايهم ملك غسّان تُسفر عمّا كان عليه هؤلاء الملوك من الجاه وبَذخ العيش وقد وصفها حسّان بن ثابت بما حرفهُ:

« لقد رأيت عشر قِيان خمسٌ روميّات يغنينَ بالرومية بالبرابط وخمس يغنينَ غناء اهل الحيرة وأهداهنّ اليهِ اياس بن قبيصة. وكان يفِدُ اليه من يُغنّيهِ من العرب من مكة وغيرها. وكان اذا جلس للشرب فُرش تحتهُ الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب لهُ العنبر

والمسك في صحاف الفضة والذهب وأتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود الندّي ان كان شاتيًا. وان كان صائفًا يطن بالثلج وأتي هو واصحابهُ بكساء صيفية ينفصل هو واصحابهُ بها في الصيف. وفي الشتاء الفراء الفنك وما اشبههُ. ولا والله ما جلست معهُ يومًا قطُّ الّا خلع عليَّ ثيابهُ التي عليهِ في ذاك اليوم وعلى غيري من جلسائهِ. هذا مع حلم عمَّن جهل وضحك وبذل من غير مسألة. مع حسن وجه وحسن حديث. ما رأيت منهُ خنًى قطّ ولا عربدة. ونحن يومئذٍ على الشرك »(١

نعم انَّ في هذه الاوصاف مبالغةً لا تُنكر لكنَّها تبيّن ما ابقى في مخيّلة العرب من الاثر عزُّ بني غسّان وترفهم لاسيَّما ان جبلة بن الايهم لم يَعُد في اوج عظمتهِ بعد ان اباد الفرس سلطان بني جفنة لمَّا غزوا الشام سنة ٦١٣ فتزعوا منهم لقب الملك. وهذا امرٌ مقرَّر (٢ وغمَّا عمَّا جاء في مؤرّخي العرب ما يشعر بخلاف ذلك. فان كان اذن بعض الخاصَّة بلغ الى هذه الرفعة والجاه فما القول عن بعض الملوك الذين تقدَّموهُ من ذوي الشأن والعزّ كالحارث والمنذر وغيرهما (ستأتي البقية)

لفظ الجيم العربيَّة

للمستشرق الاديب اغناطيوس كريمكي نزيل بيروت

وقفنا على مقالة في العدد الثالث من مجلَّة المشرق الغرّاء لحضرة الاب هنري لامنس المحترم عنوانها « لفظ الجيم أحلقيٌّ هو ام شجري ؟ ». يظنُّ الكاتب الفاضل ان لفظ الجيم المصري (gue) اقدم عند العرب من لفظ كل جيم غيرها وان اللفظ الشجري مستحدث. وختم بقولهِ كما يأتي :

« فان رغب الينا سائل وطلب ان نبيّن تعيين الزمن الذي فيهِ جرى هذا الابدال من الحلقي الى الشجري اجبنا بكل صراحة اننا نجهل ذلك. امَّا اذا كان لا بدَّ من ابداء رأينا في المسألة قلنا ولكن مع التحفُّظ وليس قولنا الّا من باب الافتراض انَّ الجيم الشجرية ظهرت بنفوذ العجم في البلاد المجاورة لهم في ما بين النهرين والعراق. ولا يبعد انها كانت لغة

---

١) راجع روايات الاغاني الاب صالحاني الجزء الاول ص ٦٣

٢) راجع كتاب نولديك عن ملوك غسّان Die Ghassânischen Fürsten, p. 42, 43